دور الأديب العربي في المعركة ضد الاستعمار والصهيونية

تقديم علي أحمد باكثير

على كل مواطن عربي مهما تكن صفته ، وأينما يكن مسقط رأسه ، من الوطن العربي الكبير ، أن يهتم بالمعركة المصيرية التي تخوضها أمته اليوم ، اهتماما يفضي الى الوعي الصادق العميق ، الذي يدفعه الى الاسهام بالعمل في نصرة قومه ، بكل ما يقدر عليه ، من حمل السلاح ان كان جلدا قويا ، أو بذل للمال ان كان غنيا ، أو دفاع باللسان ان كان خطيبا ، أو بالقلم ان كان أديبا .

وربما ظن أن الدفاع بالقلم من أضعف الايمان وهذا غير صحيح فرب قلم يكون له من الاثر في تحريك الجماهير العريضة والهاب حماسها وتعميق وعيها ودفعها الى العمل ما يفوق كثيرا أثر السلاح الذي يحمله المقاتل في ميدان المعركة .

وحسبنا أن نتذكر كيف كان قائدنا الاعظم ((صلى الله عليه وسلم)) يعتمد على خطبائه وشعرائه في الذود عن الاسلام والمسلمين حتى انه كان يقول لشاعره حسان بن ثابت : ((قل وروح القدس معك)) .

ومع تطور أساليب القتال اليوم ، وبروز الرأي العام العالمي كسلاح من أمضى الاسلحة فيه ، واتساع ميادين الكفاح وتعددها وتنوعها في العصر الحاضر ، وارتباط شعوب العالم بعضها ببعض ، وانهيار الحواجز التي كانت تفصل بعضها عن بعض ، حتى أصبح العالم كله كانه قرية واحدة ، اتسعت ايضا مهمة الاديب وصارت تشمل الاهتمام بالسياسة العالمية وما يصطرع فيها من تيارات فكرية واقتصادية واجتماعية والاهتمام باوضاع الشعوب المختلفة وتكتلاتها واحلافها وما لذلك كله من أثر على وضع أمته وبلاده .

واذا كان هذا مهمة الاديب بعامة ، فمهمة الاديب العربي بخاصة ، أكبر وأخطر ، وأوجب وأصعب ، لان أمتنا العربية تواجه اليوم عداوة الاستعمار القديم والاستعمار الجديد والصهيونية مجتمعة ، أي أنها تكاد تواجه العالم كله اذا قدرنا ما لهذه القوى الجهنمية الثلاث من سلطان في العالم لا يدانيه سلطان .

لقد كنا نواجه الاستعمار القديم وحده منذ بداية القرن الماضي ، وكان الاستعمار في عنفوان قوته ، وكنا أشد ما نكون وهنا وضعفا ، وتأخرا وانحطاطا ، من جراء الاحتلال العثماني الذي جثم على بلادنا طوال أربعة قرون ، فاستطاع الاستعمار أن يحتل بلادنا في نهاية الامر.

وقد حرص منذ البداية على تمزيق وحدتنا ، وتجزئتنا الى كيانات متعددة حتى لا تقوم لنا قائمة بعد ذلك . ولكن أمتنا ثارت على القيد ، وقاومته بكل ما تملك من قوة ، فانفجرت في مختلف الاقطار العربية ثورات متعاقبة تنجح حينا وتخفق حينا ، ولكن قافلة الجهاد ظلت تسير نحو التحرر والاستقلال وشعلةالوعي القوميظلت تتعاظم وتنير الطريق.

وترنح الاستعمار من الضربات التي كيلت له هنا وهناك ، واخذ يضعف ويتهاوى سلطانه في كل مكان ، ولا سيما بعد الحرب العظمى الثانية ، فتحرر كثير من بلادنا تحررا كاملا وسار غيرها في الطريق . وكان خليقا بأمتنا ، ولا سيما بعد ما ظهر الذهب الاسود في جهات متعددة من أرضها ، أن تمضي قدما في طريق معبد مأمون ، نحو مستقبل باهر وضاء تتم فيه نهضتنا الشاملة ، وتتحقق وحدتنا الكبرى التي لم يعد لنا غنى عنها ، وخاصة في هذا العصر الذي تسعى فيه الدول الى التوحد والتكتل حتى تضمن أمنها وسلامتها ، وتحفظ عزها وكرامتها ، في المعترك العالمي الرهيب .

أقول كان خليقا بأمتنا العربية ان يتحقق لها كل ذلك ، لولا ان الاستعمار كان قد احتاط لنفسه حينما آنس بوادر اليقظة في الامة العربية ، ورأى بوادر الضعف تدب في سلطانه ، فلجأ الى خطة تحول دون انبعاث الامة العربية ، وتضمن انشطارها الى الابد ، وذلك باقامة حاجز بشري ، من عنصر غريب عرف طوال تاريخه بالحقد على غيره من الشعوب ، والتآمر عليها والاغراق في العنصرية ، والتمسك بتلك الاسطورة الرجعية اسطورة الشعب المختار ، ليتخذ له في فلسطين وطنا قوميا يتحول بعد ذلك الى دولة تشطر العالم العربي شطرين ، وتفصل مشرقه عن مغربه فلا يلتقيان أبدا ، فيضمن الاستعمار بذلك بقاء نيره على اعناقنا ، ودوام استغلاله لموارد بلادنا وثرواتنا الطبيعية ما ظهر منها وما لم يظهر اذ ذاك بعد .

غير ان شيئا لم ينقذ الاستعمار القديم من مصيره المحتوم ، فسلم الراية للاستعمار الجديد ، الذي ما لبث ان فاق سلفه في امتصاصه لدماء الشعوب عن طريق مؤسساته وشركاته الاحتكارية الضخمة ، والذي اتخذته الصهيونية العالمية عبدا لها تأمره فيطيع ، وتقول له بعني شرف أمتك وكرامتها ومصالحها عند العرب فيبيع .

ونفذت الخطة التي دبرها الاستعمار ، وأقيمت الدولة الدخيلة في قلب الوطن العربي ، وارتكبت اشنع جريمة سياسية عرفها التاريخ بين سمع العالم وبصره ، فكانت وصمة في جبين العالم المتمدن كله ، اذ سكتت شعوبه على هذه الجريمة الشنعاء ، بل وافقت دوله المستقلة التي كانت أعضاء في هيئة الامم المتحدة على هذه المؤامرة القذرة وعلى اعطائها صفة الشرعية بقبول اسرائيل عضوا في هيئة الامم .

ولا غرو أن يقاوم العرب هذا الكيان الدخيل من أول ما قام ويرفضوا الاعتراف به كأمر واقع ويعملوا للقضاء عليه والتخلص منه ، لادراكهم الصادق ان هذا الشكل الجديد من اشكال الاستعمار أخطر عليهم من جميع اشكاله السابقة . فالاخطبوط الصهيوني لن يكتفي بابتلاع فلسطين وحدها بل يعتبرها منطلقا الى سائر الارض العربية ، حيث يتحلب ريقه على الاجزاء الغنية الموارد منها ، ليقيم عليها اسرائيله الكبرى .

وكان يريد أن ينفذ خطته هذه بالتدريج على مراحل ، ولكنه لحسن حظنا لم يستطع صبرا أمام صلابتنا في رفض وجوده ، وأمام جشعه هو وحماقته ، واطمئنانه الى مساندة الدول الاستعمارية له ، قام بالعدوان تلو العدوان ، حتى كان عدوان الخامس من يونيو هو الذروة. وكانت هزيمتنا في تلك الحرب كارثة قومية عظيمة لم يشهد تاريخنا النضالي لها مثيلا قط في فداحة خسائرنا وقلة خسائر العدو ، وفي شدة جرحها لكبريائنا القومية ، الا انه كان من لطف الله بنا ان لم يمض وقت طويل حتى أدركنا ان تلك النكسة كانت بركة علينا ونقمة على العدو من عدة وجوه : ـ

اولها كانت كشفت للعالم أجمع ، وبصورة سافرة صارخة ، حقيقة هذه الدويلة العنصرية العدوانية التوسعية التي اتخذها الامبرياليون قاعدتهم العسكرية الكبرى في الشرق الاوسط .

وثانيها انها وضعتنا نحن العرب أمام الاختيار الصعب أما نكون أو لا نكون في وقت مبكر قبل ان يفوت الاوان فلا يبقى لنا قدرة على الاختيار .

وثالثها انها كانت سببا في تصاعد المقاومة الفلسطينية الباسلة التي استطاعت في وقت قصير ان تأخذ زمام المبادرة من يد العدو فتحرمه أقوى سلاح في يده ، وأن تمرغ غطرسته العسكرية في التراب، وتجعله يشعر لاول مرة منذ قيامه في سنة ١٩٤٨ ان الارض تتزلزل تحت

قدميه وان الزمن لم يعد في صالحه ، وان وجوده في مهب الرياح ، وان القوى الاستعمارية التي من ورائه ، ان استطاعت ان تحميه من القوى العربية الرسمية ، فانها لن تقدر على حمايته من هذه القوة الشعبية الهائلة التي تصيبه في مقاتله ليل نهار ، ولا تدع له أي قرار، ولن تكف عنه حتى تواريه التراب . ولو لم يكن لها الا انها ارتفعت بالقضية ، ومعها جماهير الامة العربية قاطبة ، من سفح المطالبة بازالة اثار العدوان ، الى قمة الاصرار على تصفية الكيان الصهيوني تصفية كاملة ، وتحرير فلسطين كل فلسطين ، لكفى بذلك فضلا :

حرب الفدا هي الطريق المثلى على العدو ستكون الفصلا
توسعه في كل عضو قتلا ثم تزيل شخصه والظلا
وتلك عقبى الغاصبين المعتدين

والان ما دور الاديب العربي في هذه المعركة ؟

انه لدور جسيم ، أولا ـ لجسامة المعركة ذاتها اذ نواجه القوى العالمية الثلاث مجتمعة ، ولاتساع الجبهة التي نواجه اعداءنا عليها حتى تكاد تكون باتساع العالم كله .

وثانيا ـ لان عدونا الصهيوني قد اعتمد في نجاح حركته اعتمادا كبيرا منذ مؤتمر بال سنة ١٨٩٧ على قوة الكلمة في مختلف صورها ، من أدب وصحافة واذاعة وشاشة كبيرة وصغيرة ، وبصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الحركات السياسية الاخرى . وقد ساعد على ذلك انتشار جالياته في أقطار العالم ، مما مكنه من السيطرة الواسعة على اجهزة الاعلام المختلفة في شتى بلاد العالم ، بالاضافة الى التقاء اهدافه مع أهداف الاستعمار والامبريالية ، وبالاضافة الى الرواسب التاريخية الباقية في الفكر الغربي منذ الحروب الصليبية والتي تجعله معبأ ضد العرب ، ومتعاطفا مع عدوهم الصهيوني ، الذي استطاع بدعايته الواسعة المتغلغلة في كل مكان ، ان يضلل العالم كله عن حقيقته العدوانية العنصرية البشعة ، ويصور باطله حقا ، وحق العرب باطلا ، ويجعل المعتدين في صورة المعتدى عليهم ، والمعتدى عليهم في صورة المعتدين .

على ان جسامة المعركة لا ينبغي أن ترهب الاديب العربي أو تحمله على اليأس ، بل هي احرى ان تدفعه الى العمل الدائب ، القائم على المعرفة والدراسة العميقة ، والعزم الصادق ، على ان تخطي الحواجز التي وضعها العدو دون بلوغ كلمتنا الى اسماع العالم فانه كان للعدو فضل السبق الى استخدام الادب وفن الكلمة في القيام بدعايته الواسعة قبلنا ، وكانت له ميزة الانتشار والتغلغل في العالم ، والسيطرة على الاجهزة الاعلامية في معظم دوله فحسبنا أن الحق في جانبنا والحق في ذاته قوة عظيمة اذا وجد من يدافع عنه بالحكمة والحسنى ، وبالاخلاص والايمان والاصرار والاستماتة الى جانب التنسيق والتنظيم مع بذل أقصى الوسع للارتفاع بالصورة التعبيرية للعمل الادبي الى اسمى مراتب الابداع .

***

ان امام الاديب العربي مجالين للعمل ، المجال العربي أو المحلي والمجال العالمي ، ولكل منهما اسلوبه ، ففي المجال المحلي ينبغي على الاديب العربي : ـ

اولا : ان يكون رائدا لامته يبصرها بالاخطار التي تتهددها قبل وقوعها ، لتتقيها او تستعد لدفعها ، حتى اذا وقع المحذور توجهت بكليتها لمقاومته ومدافعته والخلاص منه .

ثانيا : أن يكون حكيما فيما يعالج من مشكلاتها وقضاياها فلا يبالغ في تضخيم المصاعب والهزائم ولا في تهوينها حتى لا يميل بها الى اليأس والقنوط ، أو الى الاستهانة والغرور .

ثالثا : أن يلتزم شرف الكلمة ويراعي ما يجب لها من أمانة وصدق فلا يتملق الحكام وأرباب المناصب رغبة أو هبة ولا يداجي الخونة والعملاء والانهزاميين والانتهازيين ،من أي لون أو اتجاه ، ايثارا للسلامة وتنصلا من التبعية ، فان الساكت عن قول الحق شيطان اخرس .

رابعا : أن يعتز بكرامته واستقلال رأيه فلا يبيعهما بأي ثمن مهما يكن سلطانه ، الا ان يرى وجه الحق فيرجع اليه فان الرجوع الى الحق فضيلة .

خامسا : ان يكون على وعي تام بالتاريخ النضالي لامته العربية منذ الحملات الصليبية والتترية بل منذ ملاحمنا مع الفرس ومع الروم في صدر الاسلام ، بل منذ اقدم من ذلك في الصراع الذي عانته الجزيرة العربية الام ذاتها ، والصراع الذي عانته قبل ذلك الاقطار الاخرى من العالم العربي ، كمصر والعراق وسورية والشمال الافريقي، ضد العناصر المغيرة عليها من شرق أو غرب . ان وعي الاديب العربي بهذه السلسلة المتصلة الحلقات من كفاح امته ضد اعدائها من الشرق أو الغرب جدير أن يعينه لا شك على وضوح الرؤية وصدق الحدس وسلامة الحكم ، وان يملأ نفسه بخلود هذه الامة على الايام وثباتها دون الخطوب والزعازع .

سادسا : ان يعي دوره في المعركة فلا يبدد مواهبه فيما لا يجدي على المعركة شيئا بله ما يعطلها او يعوقها ، كاختيار الموضوعات المثبطة للهمم والموهنة للعزائم ، أو انتحال البدع الادبية المنحرفة التي هي في بلادها نتاج اليأس الشائع هناك والانحلال والتمزق والضياع . فليس لنا ان نستنبتها عندنا مجاراة لتلك البلاد . اننا نعيش معركة ضارية ضد من يريدون سلب وجودنا ذاته فلا مكان في أدبنا لنغمات اليأس والضياع والشك والعبث والوهن .

سابعا : ان يؤمن بالوحدة العربية ايمانا صادقا يدفعه الى العمل على تحقيقها ، وتقريب المسافة من دونها ، بكل وسيلة يملكها . ومن اخطر الوسائل التي يملكها الاديب العربي حسن اختياره للغة التي يكتب بها ، فعليه ان يختار اللغة الفصحى فهي اللغة الجامعة ،المشتركة بيننا نحن العرب ، والا يكتب باللغة العامية الا عند الضرورة وفي اضيق الحدود .

أما في المجال العالمي ، فعلى الاديب العربي أن يراعي انه يخاطب شعوبا اجنبية تجهل الكثير من الحقائق التي تتصل بنا ، وتعيش في مجتمعات غير مجتمعنا ، وتختلف عنا في آرائها ومعتقداتها وأساطيرها، وارتباطاتها بغيرها من الشعوب ومواقفها من أصدقائنا واعدائنا على السواء ، فلنراع ذلك كله اذا شئنا ان يكون لنا نصيب من النجاح في اقناع تلك الشعوب وعدالة قضيتنا ، واستمالتها الى تأييدنا ونصرتنا .

ولا سبيل الى ذلك الا بالدراسة المستفيضة الواعية لتاريخ تلك الشعوب ، ولاوضاعها الحاضرة ، والالمام بادابها وفنونها ، حتى يصل الاديب العربي الى الكلمة السواء لا خلاف فيها بيننا وبين تلك الشعوب، فيتخذها أساس الحوار بيننا وبينه ، ومع التزام الانصاف في الحديث عن عدونا ما امكن ، فتلك اوقع في النفوس ، وابعث على الاقتناع وكتابنا لخالد يقول لنا « ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا اعدلوا هو اقرب للتقوى » .

ويجب كذلك التزام الموضوعية في العلاج ، والوقوف عند المنطق وعدم الانسياق مع العاطفة ، فالاسلوب العاطفي ان كان يفتفر أحيانا في المجال المحلي ، حين تدعو الحاجة الى ذلك في بعض المواقف ، فهو في المجال العالمي غير مقبول على الاطلاق .

ومن الامور التي ينبغي ان يتوخاها الاديب العربي اشاعة الروح الانسانية فيما يكتب ، فالروح الانسانية الى جانب انها تثري العمل الادبي ، وترفع من قدره وتثقل من وزنه فانها بعد مفتاح سحري يفتح مغاليق القلوب عند جميع الشعوب .

والكفاح الادبي في هذا المجال العالمي مهمة شاقة لا تغني فيها الجهود الفردية المتفرقة لاسباب كثيرة منها ان اللغة العربية ليست من اللغات المقروءة على نطاق واسع في العالم ، فلا غنى عن الترجمة الى اللغات العالمية ، والترجمة في ذاتها مشكلة ثم تأتي مشكلة النشر في دور النشر الاجنبية وشذه ليست هينة ولا سيما اذا علمنا ان للصهاينة سيطرة كبيرة على تلك الدور والمؤسسات .

ولا بد اذن من جهد جماعي يشرف عليه اتحاد ادباء العرب أوهيئة خاصة منبثقة منه ليتولى تنسيق العمل وتخطيطه على اسس مدروسة

ويكون من مهامه ما يأتي : ـ

١ ـ اختيار وترشيح الاعمال الادبية التي ينبغي ان تترجم ثم العمل على ترجمتها ونشرها وتوزيعها في الخارج .

٢ ـ اغراء من تتوسم فيهم الخير من الكتاب الاجانب ذوي الشهرة الطائرة بالكتابة عن قضايانا العربية او في موضوعات تراها تخدم قضايانا او وجهة نظرنا ولو من بعيد ، وذلك بمختلف السبل ، من استقدامهم لزيارة بلادنا واستضافتهم ، او الالتزام لهم بشراء كمية كبيرة من تلك الكتب عند طبعها .

٣ ـ العمل على افتتاح مراكز ثقافية خالصة ، « غير سياسية » في عواصم الدول الاجنبية المختلفة ، لتعليم اللغة العربية وآدابها ، لكل من يرغب من أهلها ، ولالقاء محاضرات ثقافية عن كل ما يتصل بالحضارة العربية ، وعن ادابها وفنونها القديمة والمعاصرة . ولا بأس ان اشير هنا الى التجربة التي قام بها الاديب الشاعر الدكتور مختار الوكيل في العاصمة السويسرية ، فقد نجح هذا المشروع على يده نجاحا كبيرا هناك واقبلت الجماهير عليه عن حب وطواعية ، وكان لذلك أثر جميل في الدعاية غير المباشرة للعرب ولقضيتهم السياسية اقوى وأوسع من كل دعاية سياسية مباشرة .

***

بقيت نقطة في تكوين الاديب العربي ، اراها على قدر كبير من الاهمية ، لانها الاساس في كل ما ينبغي ان يكون عليه الاديب العربي ، ليكون اهلا للاضطلاع بتلك المسؤولية الكبرى مسؤولية الرائد لامته ، الترجمان لضميرها ، الشارح لحقها ، المدافع عن قضاياها ، المتكلم بلسانها ، وليؤدي دوره خير اداء في هذه المعركة المصيرية التي تخوضها امتنا اليوم .

الا وهي ان يتحلى بصفة تعلو على الصفات كلها وتفوقها في الخطر والاهمية : واعني الاصالة العربية . والمقصود بالاصالة العربية هنا ان يكون الاديب عربيا في كل شيء وقبل كل شيء ، عربيا في شعوره وتفكيره ، ونظرته الى الكون والحياة ، عربيا في انتمائه واهتمامه واعتزازه بوطنه وامته .

عربيا في ايمانه بالحضارة العربية ، والحضارات التي قامت في مختلف اقطار وطننا العربي الكبير ، واعتبار كل اولئك حلقات في سلسلة ذهبية واحدة .

عربيا في ايمانه بالله وبالقيم الروحية السماوية ، وبالمثل العليا، وبالمباديء الخلقية الرفيعة ، اذ هذه من سمات امتنا العربية ومميزاتها ومقوماتها منذ كانت .

فالاديب العربي حقا هو الذي تكتمل فيه هذه المعاني ، ولو كان يكتب بلغة اجنبية . والاديب تعوزه هذه المعاني أو بعضها ، ليس في الحق اديبا عربيا ، وانما هو أديب من العرب أو اديب يكتب باللغة العربية .

وهذه الاصالة ليس معناها العزلة عن العالم ، أو الانغلاق في تراثنا والتعصب له تعصبا يجعلنا في معزل عن العصر الذي نعيش فيه . بل على الاديب العربي ان يتمثل جميع مشكلات عصره ، والافكار السائدة فيه ،ولكن على شرط ان ينظر الى كل ذلك بعين الانسان العربي الاصيل .

ان الذي يتأمل في المجتمع الثقافي عندنا والادباء في طليعة هذا المجتمع الثقافي بالطبع ـ ليرى ثلاثة وجوه متميزة : ـ

اول هذه الوجوه ـ بغير ترتيب ـ الوجه الماركسي ، بكل ما يحمله من مقومات فكرية وسياسية واجتماعية ، ايمان بالمادة وحدها وانكار للقيم الروحية ، وتركيز على الصراع الطبقي ، واعتبار كل سبيل او منهج لاقامة المجتمع الاشتراكي غير مقبول وغير مرضي عنه ، ما لم يكن نسخة طبق الاصل من المنهج اللينيني .

وثانيها الوجه الغربي بكل ما يحمله من نزعات رجعية وليبرالية وصليبية ووجودية وعدمية وعبثية ولا معقولية ، وجه يرى لا حضارة الا حضارة الغرب ، ولا فن الا فن الغرب ، ولا اشتراكية الا اشتراكية الغرب ، ولا ديمقراطية الا ديمقراطية الغرب ، ولا دين الا دين الغرب ، وهو يعلم او لا يعلم ان من وراء ذلك كله التخطيط الاستعماري الرهيب بمؤسساته وشبكة مخابراته .

وثالثها : هو الوجه العربي الاصيل الذي يتمسك بمقومات امته العربية ، وبقيمها الروحية والادبية والانسانية ، ويعتز بتاريخها العريض الطويل الحافل بالامجاد ، وينفتح مع ذلك على الثقافات العالمية ، بمختلف ألوانها ، وشتى اتجاهاتها ، فلا يزيده انفتاحه عليها ، واستيعابه لها ، الا ترسيخا لاصالته العربية وتنمية وبلورة .

فمثله كمثل النحل ، يشتار الرحيق الثقافي من كل زهر وكل بستان في العالم ، فيحيله شرابا عربيا ، مختلفا ألوانه فيه شفاء للعرب وللناس .

هذا الوجه الثالثهو الذي نتطلبه فيمعركتنا هذه ضد الصهيونية والاستعمار ، ولا نقصد بهذا ان الوجهين الاخرين لا يحق لهما الاشتراك في المعركة ، فكل مواطن عربي من حقه بل من واجبه ان يقوم بنصيبه، ولكنا نقصد ان السبيل الامثل للجهاد الادبي في هذه المعركة الضارية، الطويلة الامد ، المتشعبة الاطراف ، المتسعة الوقعة ، هو سبيل الوجه العربي الاصيل .

ان هذا السبيل لا يلتوي بسالكه عن القصد ، ولا ينحرف به عن الجادة ، ولا يرضى له ان يضحي بقيمة ثابتة في سبيل مكسب عاجل او يشفي داء ليضع مكانه داء آخر . انه السبيل المستقيم الواضح ، الذي يوصل الى الهدف الاسمى ، من اقصر الطرق ، وباقل التكاليف، وعلى أحسن الوجوه .

ذلك انه هو السبيل الوحيد ـ على خلاف السبيلين الاخرين ـ الذي لا يرضى لسالكه التبعية ، من أي نوع كانت ، ولاي جهة اجنبية ، بل يفرض عليه بطبيعته ومن تلقاء نفسه الاستقلال في الرأي ، وايثار المصلحة العربية في نطاقها الشامل المتكامل ، على أي اعتبار آخر خارج هذا النطاق .

ولا احب ان اترك هذه النقطة ، دون ان اضرب لكم امثلة مما نشر في بعض صحفنا العربية ، توضح هذا المعنى الذي اشرت اليه . فقد نشر احد كتابنا الصحفيين مقالا عقب النكسة ، زعم فيه اننا هزمنا امام اسرائيل هزيمة حضارية ، أي ان اسرائيل في الحقيقة لم تهزمنا عسكريا بل حضاريا . وايا كان قصد الكاتب ، فمما لا شك فيه انها زلة كبيرة ، جره اليها انه ينظر الامور بعين غير عربية .. عين امريء لا يؤمن بقيم الحضارة العربية بل لعله لا يرى للعرب سبيلا الى النهضة الا بالتخلي عن تلك القيم الحضارية كلها . والا فكيف يزعم عربي معدود في المثقفين بان اولئك الذين ارتكبوا الفظائع المخزية في دير ياسين ، وناصر الدين وقبية والسموع متفوقون علينا حضاريا ، ولذلك هزمونا في الخامس من يونيو ؟

ان كاتبنا هذا ، انما استعار هذا الرأي او استورده ، او اقتبسه أو استوحاه ، أو استنار به ، من تلك الفكرة الساذجة ، التي يتقبلها المضللون في الغرب ، ومؤداها ان معركة الصهيونية مع العرب ، هي معركة الانسان المتحضر مع الانسان البدائي ، تماما كما كانت معركة المعمر الامريكي مع الهندي الاحمر .

وكان ينبغي ما دام لا يقبل الرأي الا من الاجانب ان يستعير الرأي من اجنبي خبير بالموضوع ، وعلى شيء من الانصاف .

هذا الجنرال كارل فان هورن ، الذي احتك احتكاكا بالعرب والاسرائيليين على أعلى المستويات وادناها ، خمس سنين كاملة ، وسجل انطباعاته هذه في كتابه « الخدمة العسكرية من اجل السلام » يقول : « قد يكون العرب متعصبين في بعض الاحيان ، ومتصلبين بل ومتعنتين، ولكن طرائقهم في السلوك ، كانت دائما ارفع واكثر حضارة من طرائق الاسرائيليين . » ويشير في موضوع آخر من كتابه الى المال والجهود التي بذلها الاسرائيليون من اجل افساد رجال الامم المتحدة عن طريق الفتيات الاسرائيليات الجميلات اللائي يسرحن من الخدمة العسكرية للقيام بواجبات خاصة .

ومثل ثان في هذا الصدد . في هذا الوقت الذي نتطلع نحن العرب فيه ويتطلع العالم الى اعمال المقاومة الفلسطينية باعجاب واكبار، بل نرى فيها السبيل الوحيد لتصفية الكيان الصهيوني نهائيا والقضاء عليه ، نجد مجلة عربية اخرى تنشر بحثا طويلا حول شرعية هذه المقاومة اذا كانت غير قائمة على مذهب اجتماعي معين . في هذا البحث يحاول الكاتب الذي يرد على مقال اخر ، ان يثبت شرعية تلك المقاومة ، باسانيد ينقلها عن لينين ، كانما نحن امة لم تعرف الجهاد في سبيل الحق والكرامة من قبل ، وكاننا لا يجوز لنا اليوم ان نقوم بأي عمل ولو كان في مقاومة اعدائنا الصهاينة الا اذا وجدنا في اقوال لينين ما يفتينا بجواز ذلك العمل ..

ومن هذا القبيل ايضا ما تردد على اقلام بعض كتابنا منذ النكسة، وهو ان هذا العدوان الصهيوني الاستعماري في الخامس من يونيو ، لم يستهدف غير النظم الاشتراكية التقدمية في العالم العربي ،لاسقاطها والقضاء عليها ، ولست أدري كيف يغفل اولئك الكتاب عن تاريخ الصهيونية وتاريخ غزوها لبلادنا والا فان نظرة عجلى الى ذلك ، خليقة ان تفتح عيونهم على ان الصهيونية ، والاستعمار من ورائها ، حينما بدأت في اقامة كيانها الدخيل في بلادنا لم يكن في بلادنا حينئذ دولة اشتراكية واحدة .

ان مثل هذه الفكرة الخاطئة لا تخدم غير الاستعمار والصهيونية.

اولا : بما تثيره بين الدول العربية ذات الانظمة من خلاف وتفرقة وتبذر بينها من شك وقلة ثقة .

ثانيا : بما تحققه للصهيونية من هدف عظيم ظلت تخطط له من قديم ، وهو ايهام العالم بان كفاحنا نحن الغرب ضدها ، وضد الاستعمار الذي يساندها ليس حقيقة قائمة بذاتها وانما هو مظهر من مظاهر الصراع بين المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي ، ويترتب على ذلك انه لو ساند المعسكر الشرقي اسرائيل يوما ما كما فعل من قبل عند قيامها سنة ١٩٤٨ او لو تغلب الحزب الشيوعي في اسرائيل ، فحولها الى دولة اشتراكية تناصر موسكو ونعادي واشنطن لوجب علينا حينئذ ان نقطع الكفاح ضدها ونبارك كيانها الدخيل ونعترف بها . ومن الواضح ان هذا باطل كبير ، والحق الذي لا يحتاج الى بيان الا عند من يخضع في رأيه لتبعية مذهبية اننا نكافح الكيان الصهيوني الدخيل الذي اقامه الاستعمار في قلب وطننا العربي بالقوة ، كائنا ما يكون مذهبه السياسي او الاجتماعي ، وسنظل نكافحه حتى نقضي عليه .

وهذا التضليل الذي نجحت الصهيونية العالمية في اشاعته كان له اثر خطير في تعبئة الشعور العام (في امريكا واوربا الغربية) ضدنا ولصالح اسرائيل اذ توهمت تلك الشعوب اننا لا نكافح اسرائيل باعتبارها كيانا عنصريا دخيلا اغتصب وطنا من اوطاننا وشرد شعبه ويهدد وجودنا في المستقبل ، وانما نكافحها لانها اختارت الوقوف الى جانب الدول الرأسمالية الغربية لتحمي لها مصالحها في الشرق الاوسط بينما نحن اخترنا الوقوف الى جانب الدول المناهضة لها وهي الدول الشيوعية .

واذا كنا لا نهتم بحكومات تلك الدول الغربية الاستعمارية لعلمنا انها لن تتخلى ابدا عن تأييد اسرائيل التي من صنع يديها ، مهما حاولنا ذلك ، فان موقفنا من شعوب تلك الدول وجماهيرها يجب ان يكون مختلفا ، فعلينا ان نواصل الكفاح لاستمالة تلك الشعوب لتأييد حقنا وذلك بتوضيح الحقائق لها وفي مقدمتها هذه الحقيقة الاساسية الكبرى حقيقة صراعنا مع اسرائيل .

وربما اعترض معترض باننا نحتاج الى الوجه الاول ليقوم بدور كبير في توثيق روابط الصداقة والتعاون بيننا وبين المعسكر الاشتراكي الصديق ، ولا نستغني عن الوجه الثاني ، ليكون اداة فعالة في كسب عناصر مناصرة لنا في المعسكر الغربي كذلك .

وجوابنا على ذلك اننا ما نظن ان كسب الانصار من المعسكر الغربي لقضيتنا يستحق منا ان نضحي بذاتيتنا الحضارية والثقافية في سبيله . واما بالنسبة الى المعسكر الاشتراكي فمن حسن حظنا ان هذه الدول الاشتراكية ، وشعوبها المحبة للسلام ، المعادية للاستعمار ، لا تلزمنا ولا تشترط علينا ان ننسلخ من ذاتيتنا العربية هذه لنفوز بصداقتها ومناصرتها ، وتلك حقيقة اثبتتها التجربة الفعلية في علاقاتنا مع هذه الدول وشعوبها ، وتعاونها معنا تعاونا مخلصا في محاربة عدونا المشترك : الاستعمار .

بل ان كثيرا ممن يحملون هذا الوجه الاول من مثقفينا كانوا اداة تنفير من هذه الدول الاشتراكية الصديقة ، وتوهين للروابط بيننا وبينها ، بما يمارسونه في مجتمعنا الادبي والفني من ارهاب فكري وتواطؤ منسق على اضطهاد الكفايات الادبية والفنية التي لا تنتسب الى شلتهم ، وهم يتصرفون كانهم سفراء المعسكر الاشتراكي بيننا فيشوهون بذلك صورته ويسيئون الى سمعته ، والمعسكر الاشتراكي منهم ومن أعمالهم براء .

وان الذين اتيح لهم منا زيارة الاتحاد السوفياتي ، والاتصال بأدبائه ، ليرون هذا التباين الكبير بينهم ، وبين ادبائنا هؤلاء الذين يحملون هذا الوجه المستعار ، الذين لا ينسون احقادهم الصغيرة ، حتى في احرج الاوقات عقب النكسة حيث يجب تناسي الخلافات كلها ليتفرغ الجميع للمعركة .

ولا يتوهمن متوهم اننا نريد بهذا ان نحجر على حرية الفكر في بلادنا ، او ان نوجب على ادبائنا التزام مذهب فكري واحد لا يتعدونه الى غيره ، فحرية الفكر يجب ان تكون مكفولة للجميع ، لانها في حد ذاتها مطلب اساسي لا غنى لمجتمعنا العربي عنه باي حال ، فضلا على انها سمة بارزة من سمات حضارتنا العربية في عصورها الزاهرة .

ولكن المعركة التي تخوضها اليوم امتنا ، والتي يتوقف عليها مستقبلنا لاجيال ، بل يتوقف عليها وجودنا ذاته ، تجعل حقا علينا ألا نولي قياداتنا الفكرية والثقافية والاعلامية والتربوية الا للذين تتوافر فيهم ، الى جانب كفاياتهم ومواهبهم تلك الاصالة العربية التي وصفناها، وذلك لضمان انتصارنا بعون الله وتأييده ، الانتصار الصحيح الشامل الكامل .

ويطيب لي في الختام ايها الاخوة أن اتمثل بكلمات مضيئة في هذا المعنى ، القاها الرئيس جمال عبد الناصر في افتتاح عيد القاهرة الالفي اذ قال حفظه الله وأيده « التطور الصحيح امتداد للتاريخ ، وليس انقطاعا عنه ، بل ان الثورة ، وهي اسرع درجات التطور ليست في حقيقة امرها ، الا محاولة مكثفة للحاق بحركة التاريخ ، والانسجام معها ، والسير فيها نحو التقدم . »

القاهرة — علي احمد باكثير

زوروا

مكتبة الفجر

بواد مدني ـ السودان

ص. ب ٣٥١ ـ تلفون ٥٥٧

كتب علمية وسياسية وادبية